الدنيا بخير

قصة : « محمد القرش »

مقدمة
بقلم محمود تيمور

كان طبيعيا ، وقد انفسح الميدان لكل راغب فى الثقافة ، وتوافرت الفرص أمام حملة الاقلام على اختلاف المستويات ، أن يزدحم على كتابة القصة عامة والقصيرة خاصة ، واردون كثير ، فهى منهل عذب ، وفيها طواعية ومرونة ، ومن ثم يستلين ناشئة الكتاب جانبها فى التعبير والتصوير .

وفى مثل هذه الحال ، التى يتزايد فيها الكم ، يتناقص الكيف ، فبينما يفزر الانتاج ، يندر منه الجيد المستطاب .

وايا كان الامر ، فليس من شك فى ان هذا الانبعاث الى معالجة القصة فى نطاق واسع ، سبيل الى اماطة اللثام عن مواهب كامنة . فيارب صوت ضاع خلف الأبواب الموصدة ، ويارب جمرات متقدة ان لم يدركها الترويح خبت نارها تحت الرماد !

ولشد ما يشوق المرء أن تومض له بارقة عمل فنى جيد ، فيما تطالعنا به الصحف ودور النشر من قصص ، فان فى هذه البارقة تعويضا كريما عما نحسه من الفضاضة حين يتبين لنا ما فى الغمر القصصى الزاخر من غث هزيل ، وان فيها لتجديدا للتفاؤل بمستقبل القصة بين فنون الأدب العربى ، والاطمئنان الى انها ماضية الى أمام ، وان لم تسلم خطاها على الطريق السوى من عثرات .

ولقد اتاح لى الاستاذ « محمد القرش » ان اقرأ قصته القصيرة : « الدنيا بخير » ، فأشاع فى نفسى الفرحة بلقاء قاص جديد ، أسعفته الملكة ، ولم تعوزه الادوات .

ولئن كانت قصته تلك هى باكورة ما يقدم للنشر ، انها

بقيمتها الفنية قد سلمت مما عسى ان يكون فى البواكير من ضآلة وضعف . فهى باكورة توافر لها من عناصر النضج والاينـاع ما يعز توافره على غير الموهوبين من القصاص .

ومما زادنى اعجابا أن الاستاذ « محمد القرش » ثمرة طيبة للثقافة العصامية الحرة ، طالع ما طالع فى الادب العربى القديم ، وألم الماما غير قليل بالادب العالمى الحديث ، ودبت فيه نزعة الكتابة، ولكنه ضن بقلمه أن يظهر به على الملأ ، عنـد أول القطر . فآثر التريث ، وصبر نفسـه على التجربة ، وهو اليوم يقدم باكورته القصصية وقد جاوز الأربعين من عمره ، اذ أحس أنه قد أصـبح صاحب حق فى أن ينشر مايكتب ، كشأن من آنس فى نفسه المقدرة على السـباحة ، فدفع بساعديه فى الخضـم المواج ، على رءوس الأشهاد .

وأنت تطالع قصة « الدنيا بخير » فيسترعى انتباهك ، بادىء بدء ، أن كاتبها الاستاذ « محمد » ــ واسمه يكشف بوضوح عن ديانته ــ يصور لك الحياة فى بيئة مسيحية ، فيحسن تصوير الطابع الخاص لتلك البيئة فى طوايا القصة حتى ليجعلك تستشعر ذلك الطابع استشعارا لاخفاء به فيـدلك على أن الكاتب بفطنته ودقة ملاحظته لا يعجز أن يستخلص بالتعرف والمخالطة مختلف المعالم التى تعين على ابراز الطابع المميز .

وعظمة الموضوع الذى عالجه الاستاذ « محمد القرش » ، تتمثل فى انه استطاع ان يجلو لنا صورة هادئة دقيقة لحياة رجل من ذوى الحرف ، فى أثناء قيامه بعمله ، وفى علاقته بصاحب المحل الذى يعمل فيه . فهذا الرجل اسكاف أو ــ كما نسميه فى لهجتنا الدارجة ــ « عتقى » ، ينكفىء طول يومه على السندان ، وفى يده مطرقة ، ولسانه مشغول بنقل المسامير الصغيرة من تحته الى شفتيه ، ولا عزاء له أخيرا الا فى نظرته الراضية الى الحذاء اللامع، وقد انبعث بين يديه حيا . وبجانب الرجل رئيسـه ، يشترك معه فى العمل ، وكلاهما صـامت ، لا لانهما عزوفان عن الكلام ، بل لأن فم كل منهما محشو بالمسامير .

واسـتطاع الكاتب كذلك أن يقفنا على معيشـة الرجل المنزلية ، بين زوجه وأطفاله ، وكأننا معهم نرى ماذا يطعمون ، وعلى اى نحو يأوون الى المضاجع ، وكيف يصرفون شئونهم فى صبر واحتمال لما يعانون من جهد وشظف .

ومع أن القصـة عامرة بجوانب كثيرة ، تأخذ على الكاتب

سبيله ، لم تخل شرائحها من تحليل نفسى ، يتبين به تطور الشخصية ، وتنازع التفكير . ففيها عند الاقدام على الامر المستنكر ابانة عما يعتلج فى النفس من تردد ومحاذرة ، وفيها ما يجرى عليه الطبع البشرى من ممارسة التصرفات من محاولة التعليل وارادة التبرير . فلا قفز فى المواقف ، ولا فرض للسلوك ، ولا جمود فى الشخوص .

وبالرغم من تعاون الظروف والملابسات على أن يخلد الزوجات الى فكرة جريئة ، وبالرغم من عزمهما على تحقيقها ، وشروعهما فى انفاذها ، لم تلبث الفكرة الجريئة ان انهارت على صوت العاطفة . وقد أطلق الكاتب هذا الصوت العاطفى فى تدبير محكم ، ومنحى غير متكلف ، فان الصيحة التى انطلقت من فم الطفل الغريب هزت نفسية الرجل ، اذ بدا له مصير طفله امام عينيه ، فوهن عزمه ، ونكص عن فكرته ، بل لم يطق أن يترك الطفل الغريب لمصيره الأليم . وهذه الاستجابة العاطفية لها أصالتها فى نفس الانسان ، مهما يكن من وطأة الظروف والملابسات ، ومهما يكن من أمر العزم والاصرار .

ولكن الكاتب ـ فى حرصه على أن يجعل لهذا التطور باعثه الطبيعى ، وسنده المنطقى ـ كان موفقا كل التوفيق حين هيأ لنا أن ندرك السر فى اقبال الزوجين على شىء ، على حين أنهما خرجا يتخلصان من مثله ، فقد كان فى الطفل الغريب ما يغريهما بقبوله ، اذ لم يعش لهما من ذريتهما غير الذكور ، وما أشوقهما ـ مهما تكن الحال ـ الى أخت للبنين !

وفى القصة، خلال تصوير شخصياتها ، وحكاية احداثها ، تتراءى لنا جملة من مشكلاتنا الاجتماعية ، وفيها مع هذا كشف عن سماتنا الشائعة ، وعلى رأسها الاستسلام للواقع ، وقد تألف من خيوط الخاتمة على قلتها نسيج متأصل فى كياننا ، وهو الاريحية المفاجئة عند الشدائد لاغاثة الملهوف ، وبذل المعروف . وأروع ما انطوت عليه هذه الاريحية هو اللمح الخفيف الى أن العاطفة الانسانية تلتقى على تعدد الاديان ، بل لعل جوهر الايمان من أقوى البواعث على أن تتوهج تلك العاطفة توهجها العظيم .

وانى لمعتز بأن أقدم الآن هذا الزميل الجديد ، الأستاذ « محمد القرش» فهو قرش « أبيض » نافع ، كما يقول المثل العامى السائر .

وأرجو أن يكون عنوان قصته الاولى « الدنيا بخير » ، بشيرا بأن « القصة بخير » !